خطورة الفكر التبريري على بعث الإسلام من جديد



25 ربيع الثاني 1435 هـ - 25 / 02 / 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

للنفس البشرية قدرة عجيبة على التهرب من المسؤولية، والالتواء.. والمكابرة عن الاعتراف بالذنب، فتختلق آلاف من المبررات تستطيع معها أن تجعل ساحتها نقية طاهرة، وإن ظروفاً أخرى قاهرة هي المتسببة في الكوارث.

وهذا هو "منطق إبليس وحجته" فالفرق بين خطيئة آدم، وخطيئة إبليس.. أن آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اعترف بذنبه وسأل ربه المغفرة، وإبليس تكبر عن الاعتراف بذنبه، وألقى باللوم على ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ [الأعراف: 16] وسأل ربه أن يُمهله إلى يوم الدين !

وكان هذا هو ذنب البشرية الأول، وتجربة الإنسان وإبليس مع الذنب.

الإنسان: اعترف بذنبه، وبمسؤوليته عن هذا الذنب، وباستجابته لغواية إبليس.. ثم أناب ورجع إلى ربه يضع عنده جُرم يديه، وكل ذنوبه، وهو يخجل منها، ويتحسر على التفريط في جنب ربه، ويتقدم إليه بالمناجاة وطلب المغفرة والرحمة والرأفة، فيستجيب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فهو الغفور الرحيم.. يغفر الذنوب، ويعفو عن السيئات، سبحانه هو الرحيم الكريم يُبدل الذنوب حسنات ! فيا له من رب كريم.

إبليس: وقع في ذنب "الاستكبار"، لم يلتفت لخطئه ولا لجريمته، بل ظل في هذا الاستكبار مصراً عليه، لم يعترف بذنبه، ولا بخطئه، بل تبجح به.. بل إنه يلقي باللوم والمسؤولية على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واعتبر أنه سبحانه! هو الذي أغواه ! فلم يعتذر إبليس ولم يطلب الرحمة، بل طلب الإمهال إلى يوم الدين لينتقم من بني آدم ! الذي ظن إبليس أن آدم سبب لعنته، بينما سبب اللعنة هو ما بنفس إبليس من استكبار وعصيان لله سبحانه؛ وكان سينكشف ما بنفس إبليس سواء في حالة رفض السجود لآدم أو غيرها ! فاستحق لعنات الله سبحانه ولعنات المؤمنين إلى يوم الدين، ثم هو في النهاية في الجحيم.

فكان الاعتراف بالذنب وتحمّل المسؤولية واعتراف النفس بخطئها وجهلها وظلمها، هو مفرق طريق في حياة البشرية كلها، ونحن فيها – في كل الأزمان – أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما سُنة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. الاعتراف وطلب التوبة والالتجاء إلى الله. وإما سُنة إبليس اللعين.. التبرير والتكبر وإلقاء التبعة واللوم على آخرين.

ولم يكن ذنب البشرية الثاني من ذلك ببعيد ! ها هو القرآن يحكي قصة ابني آدم..

قربا ابني آدم قرباناً لله تعالى، فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر.

فهل عزم الآخر (الذي لم يُتقبل منه) على:

- مراجعة نيته وسريرته نحو ربه.
- مراجعة القربان أيكون فيه نقص أو عيب.
- تصحيح نيته وعمله وأن يتحرى الإخلاص والصواب.
- تنقية قلبه من كل حقد أو حسد أو غل يمنع قبول العمل.
- معالجة أمراض نفسه، ويفتش بكل دقة وصبر عن العيب.

كلا.. لم يعزم على شيء من ذلك، بل عزم على الانتقام ممن أظهر عيوب نفسه، عزم على إلغاء وجود ذاك الذي أظهر نفسه وهو ناقصة معيبة، بينما هي ترى في نفسها الكامل والعصمة، وربما الشعور بالألوهية ! فلما رُفض قربانها غضبت وانفعلت وتولد الحقد والبغض والغل بدلاً عن الخشوع والتقوى والإنابة ! وراحت تمضي في "سُنة إبليس": الانتقام ممن أظهر عيوبها ونقصها. فقال لأخيه: لأقتلنك !

وأخيه حريص عليه ويخشى عليه من الهلاك، فأوضح له طريق القبول بجملة قصيرة هي منهج حياة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]

ولكن النفس المجروحة المتكبرة العنيدة، التي تُصر على الذنب، وتُصر على تمجيد ذاتها، وتطهير ساحتها.. وهي الملوثة بأقبح الذنوب وهو "الكبر" لم تستمع إلى النصيحة، وكيف تستقبل المعرفة وهي هكذا متنفشة بالباطل؟!

لقد كان الطريق لها مفتوحاً للعمل في مجال "التقوى" وتصحيح الخطأ والتفتيش في النفس، هل أصاب العمل شيء في الإخلاص أو في الصواب، كان يكفي المحاولة الثانية أو الثالثة أو الرابعة.. محاولة مستمرة حتى يتقبل الله العمل؛ والإصرار على تقديم قربان آخر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولحظة أن يرى الله صدق القلوب وطاهرتها، وحرصها على مرضاة الله؛ يتقبل الله تعالى العمل.. بل ويضاعفه أضعافاً مضاعفة فهو الجواد الكريم الحليم الرحيم الودود الغفور الرحيم.

ولكن.. لم ترَ النفس طريق التقوى، وثقل عليها أن تراجع نفسها.. وسَهُل عليها قتل أخيها!!

هذه التجربة مع الذنوب هي تجربة النفس البشرية منذ خلقها الله، وهي نفس الطبيعة البشرية لم تتغير على مر الأزمان، ومن اتبع سُنة أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد نجى، ومن اتبع سُنة إبليس اللعين فقد هلك.

وعرض القرآن الكريم لهذه الحوادث والتجارب؛ ليكشف لنا عن طبيعة النفس الإنسانية وأسرارها وليُبين لنا طريق النجاة، وليكون ضياء ونوراً يكشف لنا ظلمة النفس ودروبها وأغوارها.. وكانت "خطيئة آدم" "وقصة ابني آدم" تجربة النفس الإنسانية في حالتها الفردية، ولشدة أهمية هذه المسألة يعرض القرآن في سياق غزوة أحد التجربة في حالتها الجماعية.

* * *

في غزوة أحد، قُتل ما يقرب من سبعين من كبار الصحابة! وأُصيب رسول الله ﷺ ولما نزل القرآن لم يتوجه باللوم إلى الكفار.. بل إلى المسلمين ! ﴿ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 165]

لم يستوعب المسلمون تلك الصدمة العنيفة، إذ بينهم رسول الله ﷺ، وهو المؤيد بالوحي.. كيف يحدث هذا ؟ فجاء الجواب الحاسم القاطع: "مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ" وإذا كان السياق هنا يتحدث عن سُنن الله التي لن تحابي أحداً ولو كان رسول الله ﷺ فهو يتحدث كذلك عن أن الذنوب التي حدثت تستلزم العقاب، وتستلزم توبة المؤمنين.. ويُعلم الأمة المسلمة في هذا الدرس البليغ كيف تقرأ الأحداث والمصائب ؟ وكيف تحلل المشكلة ؟ وكيف تنظر فيها ؟

لم يتحدث القرآن عن جريمة الكفار في هذا الموضع.

لم يتحدث عن مكرهم، وفتنتهم.

لم يتحدث عن قدراتهم وعتادهم وعدتهم.

لم يتحدث عن وحشيتهم وقسوتهم ومصيرهم.

بل تحدث عن سبب المشكلة "قل هو من عند أنفسكم" والحل يمكن فيها، والبداية عندها، وكل ما حدث كان مجرد أعراض وآثار ما بالنفس من أمراض.

هكذا كان الإسلام يُخرّج المسلم الرسالي، الذي لا يلوم عدوه، ويجعله هو المتسبب في كل ما يحدث، بل يلوم نفسه أنه عصى القيادة، أو لم يعد العدة، أو لم يتحرَ الإخلاص والصواب معاً... إلخ.

هكذا كان الإسلام يصنع المسلم الرسالي، الدقيق في حركته، والمتتبع والمتبع لسنن الله في الكون. فليس معنى أنه يعمل من أجل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو فيه رسول الله ﷺ.. سُتخرق السُنة والقانون من أجله، بل سيمضي في الطريق بكل ما فيه من الصعاب والمتاعب والمشاق، وإذا أخطأ سينزل العقاب الفوري عليه.. كما سينزل على غيره، هكذا يقول القرآن له: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ [النجم :39، 41]

ليس للإنسان إلا "سعيه" وسعيه هذا سوف يراه الله، ولن ينجح العمل في الدنيا ويقبله الله تعالى إلا أن يكون خالصاً لوجه الله الكريم وصواباً.. ثم يجُزيه الله به الجزاء الأوفى الكامل.

هكذا كان الإسلام يصنع المسلم الرسالي، الذي يعالج خطأ نفسه، ويغير ما بنفسه، ويصحح ويتطهر مما كسبت يداه، ثم يعمل على تغيير المجتمع حتى يدور في فلك الرسالة.. وعندها يُغير الله ما حل من أعراض وآثار وظواهر نشأت – من الأساس – عن تخلي المتجمع عن رسالته: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : 53]

هكذا كان المنهج القرآني وهو يصنع ويُخرّج الشخصية المسلمة، وأهم سمات تلك الشخصية هي "التوازن" فلا الإنسان يُبرأ نفسه تماماً، ويلقي اللوم على عدوه. ولا هو يجلد ذاته ويعذب ضميره في وساوس وهواجس تقعده في النهاية عن العمل.

بل بكل بساطة ورفق، يُوجهه للمشكلة، والحل. **المشكلة:** خلل في النفس. **الحل:** معالجة الخلل والمضي في الطريق.

وغالباً ما يقع الخلل في جانب تبرئة ساحة النفس وإلقاء اللوم على العدو.. ثم في النهاية نجد أنفسنا ننفق أوقاتنا وجهدنا وعملنا في:

- إثبات أن العدو عدو، وحتى هذه قد نفشل فيها !

- إثبات أن العدو مجرم، ومعتدي.
- إثبات أن العدو يملك أدوات جهنمية رهيبة.
- إثبات أن العدو يستحوذ على آلة إعلامية رهيبة تملك العقول والقلوب.
- إثبات أن العدو يملك أسلحة فتاكة، ولا يرقب فينا إلاً ولا ذمة.
- إثبات أن العدو يمكر علينا، ويحاربنا !

وفي خلال هذا الإثبات والتكرار.. تهرب نفوسنا من المسؤولية والمراجعة ، وتهرب من تحمّل التبعات ، ومعالجة الأخطاء.. إنها فقط تكتفي بالصراخ وإثبات وحشية العدو ! لأنه يبدو عملاً سهلاً أمام الشجاعة في مواجهة النفس ! إنه نفس هروب ابن آدم – الذي قتل أخيه – من مواجهة نفسه !

والمنهج القرآني يُوجهنا بكل حسم ودقة ووضوح: "مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ" "فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ"

يقول المنهج القرآني راجعوا:

- إخلاصكم لله تعالى.
- صوابكم في الأعمال.
- سنن الله في كونه.
- فتشوا في أمراض نفوسكم.
- كرروا المراجعة والبحث في النفوس عن الخلل.
- تحلوا بالشجاعة والصبر في مواجهة أمراض النفس.
- استعلنوا الحقيقة وعلموا قومكم طريق الله، وصراطه المستقيم.
- اجتمعوا على تصحيح القيم والموازين والتصورات والمفاهيم والأخلاق.

ولكن.. تتهرّب النفس من ذلك، ولا تريد الاعتراف بهذه الذنوب، بل تلجأ إلى حيلة عجيبة ! إنها تتلو الكتاب لتقول إنها بريئة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَمّى هذا الفعل "أماني" أي: طلب النُصرة بلا جهاد،

طلب النجاح بلا تخطيط، طلب التمكين بلا عمل، طلب القوة بلا إعداد. وهذه كلها أماني كاذبة.. مجرد أمنيات وأحلام بلا عمل وجهد وعُدة واتباع لسُنن الله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: 78]

هؤلاء هم الجهلة الأميون الذين يتبعون الظن، وما تهوى الأنفس !!

* * *

مكمن الخطورة في الفكر التبريري:

- تطهير ساحة النفس وتقديسها، وتبرأتها من الأخطاء.. الأمر الذي يقطع الطريق على سنن الله في التغيير.
- إلقاء اللوم على العدو، الذي تتضخم قوته يوماً بعد يوم. بينما النفس قاعدة عن العمل بإخلاص وصواب فهي تدعي أن بريئة من أي مسؤولية.
- نشوء الشخصية الارتجالية الاتكالية التي تنتظر معجزة من السماء.
- استهلاك الطاقات والأعمار والأموال في الحديث عن مساوئ العدو، والإفراط في الحديث عنها.. والاكتفاء بذلك دون اتخاذ خطوات المعالجة في داخل النفس ومجتمعها !
- العقم الفكري أمام النظر في سنن الله في الكون والمجتمعات والحياة والإنسان.
- التخلّف عن علوم النفس والواقع والمجتمعات، وتَحول الكتاب والوحي إلى مجرد تلاوات عذبة وأمنيات كاذبة ! يُستكثر فيها بحفظ القرآن بالروايات العشر، وحفظ كتب السنن متناً وإسناداً! والاكتفاء بذلك !
- التخلف عن طريق الله، وصراطه المستقيم.
- تفاقم المشكلات، وزيادة آثارها وظواهرها دون معرفة مكمن الخلل، وكيفية التصحيح وبداياته.
- تضيع الأوقات والأعمار والدماء والأرواح في طرق خاطئة، ومحاولات فاشلة.
- الفشل في إقامة الدين، وإعلاء كلمة الله، وتحكيم شريعته.
- الفشل في حمل رسالة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى العالمين.